مناقشات ١

ايديولوجيا.. ايديولوجيا*

على الرغم من أنّ الحديث عن نهاية المثقف العربي، وخاصّة الرسولي منه، هو حديثٌ نافل، فإنّ ثمة حاجة إلى إعادةِ الكلام عن مجموعة من الحقائق لإزاحة الستار عن ادّعاءات بعض الممثّلين الذين يخشون أن ينزاح البساطُ من تحتهم، فلا يبقى لديهم ما يتكلّمونه، لا على المسرح الثقافي، ولا على المسرح السياسي.

فهؤلاء، مع غيرهم، يشكّلون شبكةً معقّدةً من العلاقات البلطجيّة ـ الشفّافة أو الفظّة ـ المستنفِرة لكلّ ما لديها من ارتهانٍ واستزلامٍ لمراكز القوى العربية ـ الأجنبيّة، من أجل تكريس الواقع الثقافي العربي الراهن، بمختلف رموزه الكبيرة والصغيرة، كي يبقى، كما هو، هامشياً، لا حول له ولا قوّة، تاركين، وفي أحسن الأحوال، بعض الفسحات ـ وهي اختباريّة على الأغلب ـ أو قد يضطر إليها القيّمون على موت الوجود العربي، مادّياً ومعنوياً، ليندثر أيُّ أمل في قوامه الحضاري. فلا يبقى للعرب، ولمن يعيشون في حماهم من قوميّات أخرى ـ مضطه[illegible]لازماً مع اضطهاد العرب ـ إلاّ بقايا وآثار لحضارات تحـ[illegible] الأثر ما تصلح لاستعراضٍ سياحيٍّ، يكون لأصحابها فيه دورُ التابع والحارسِ المطمئنّ على راحة وسلامة السوّاح أصحابِ الحضارات الصناعيّة ـ العسكريّة الجبّارة.

وكيلا يؤخذ كلامي على محمل ايديولوجي، أسارع الى الإيضاح بأنّني من هواة السياحة المحرومين، [illegible] الداعين إلى تطوّر السياحة وشعبيّتها، والشاجبين لمن يقومون بتخريب هذا القطاع المسالم والممتع، بالاعتداء عليه، أو بإرهاب روّاده من العرب وغيرهم من الإفرنجة والأعاجم، ولأيّ سبب ايديولوجي كان. وما أقصده من كلامي هو الرغبة في وجودٍ حضاريٍ متكامل للعرب، لا يقتصر على ما هو استهلاكي وسطحي، وتتحكّم به الظروفُ العالمية المتقلّبة.

وواقع الأمر أنّ حال الثقافة العربية لا تختلف كثيراً عن غيرها من قطاعات الإنتاج الأخرى. فهي مكرّسة للاستهلاك: إمّا عن طريق اجترار الحضارة العربية القديمة، لخلق حالة من الفصام بين ماضي العربي وحاضره... وإمّا عن طريق استهلاك الحضارة الغربية، من غير مساءلة حقيقيّة تنهض بواقع العرب، ليكونوا بموقع المحاورين ـ المتشككين على الأقلّ ـ لا المستمعين بإذعان لما يقوله الآخرون، من غير إضافة، أو إبداع يتطلّبه الحوارُ وقراءةُ الواقع المحلّي في علاقاته الموضوعية مع التطوّرات الكونية، الأمر الذي يفضي به، دائماً، الى حالة الفصام السابقة، مع اختلاف المواقع هذه المرّة بين الواقع العربي المتخلّف، وبين المستقبل غير المنظور إلاّ على شاشات الآخرين وترجماتهم.

والحق أنّ الاطّلاع على الآخر أمر حتميّ في واقع الاتصالات العالمية المعاصرة. بل هذا أمر لا بدّ منه، ويمكن أن يحوّل إيجابياً لَمْنْ يملك رؤيةً مبصرة لواقعه، وللدور الذي يرغب القيام به، لإثبات وجوده باستحضار الإمكانيات الفعّالة لذلك. لكنّ المشكلة المستعصية على الحلّ، حتّى الآن، هي هذا الرفضُ المطلق للآخر، وغالباً بإيحاء منه، لتعزيز حالة الخوف، وبالتالي الهزيمة. أو هي هذا التشويه لمنجزاته، أو بالأحرى استحضارُها المشوّهُ الى الواقع العربي، لتبقى بلا فعّالية تُذْكر، أو بفعالية مضادّة. هذه المشكلة عاناها العرب جميعاً،

* ـ تعقيباً على ملف الآداب «نهاية المثقف» المنشور في العدد ٨/٧ ـ ١٩٩٨.

وباختلاف تياراتهم الفكرية ـ العلمانية والدينية ـ وعلى مرأى من الأنظمة العربية، وبإدارتها الى الغرب تارة، والى الشرق تارة أخرى.

وليس غائباً عن الجميع أنّ الدفاع، وبضراوة، عن دور المثقف الرسولي، هو ما كانت تروّج له، وربّما لم تزل تروِّجُ له، جميعُ الأنظمة العربية باختلاف ايديولوجياتها القومية والإسلامية واليمينية والستالينية.. الى آخره. إذ صار من البدهي القول: إنّ خطاب هذه الأنظمة هو خطابٌ ايديولوجيٌّ أوّلاً وأخيراً، تداري به هزائمها المتوالية من جهة، وأساليبها البالية في طرائق الحكم الاستبدادية من جهة ثانية. وربّما أكثر ما يدفعها [الأنظمة] الى الترويج لدور المثقف الايديولوجي الرسولي هو ما يحقّقه لها هذا الدورُ من مرآةٍ عاكسةٍ في اللاوعي الجمعي للدور الذي يقوم به السياسيُّ الكلّيُّ القدرة ـ الحاكمُ منه، أو ذلك الذي يعمل على الوصول الى الحكم أو المشاركة فيه بأيّة طريقة كانت. وبهذا المعنى لا يلعب المثقفُ العربيُّ ـ موالياً أم معارضاً ـ إلاّ دوراً دعائياً لراعيه السياسي أو السلطوي، مهما حاول أن يتلبّس بالحديث عن الأدب والفنون والحقوق وما الى ذلك. وما الصراعات بين المثقفين، التي تشاهَدُ بين الحين والآخر، إلاّ انعكاساتٌ ترويجيّةٌ للصراعات المفترضة بين رجال السلطة من حكّام وبيروقراطيين ومعارضة شكلية. وهي في معظمها، وكما هو معلوم، صراعاتٌ تلفيقية، لا شأن للمواطن العربي بها، مادام مسلوب الإرادة السياسية. فما القول إذا ما حكي عن مستوى هذا المواطن الفكري، أو بالأحرى إذا كان السؤال عن الوسائل التي يستقي أفكاره منها؟ وهذان السؤالان يطرحان سؤالين أكثر جدوى، هما أوّلُ ما ينبغي للمثقف أن يطرحه على نفسه: «مَنْ يصغي إليّ؟»، و«ما هي المقدرات الذاتية التي تخوّلني أن أكون داعية أو مبشّراً؟».

أليست الإجابة على مثل هذه الأسئلة هي ما تتيح السخريةَ من انحدار المثقف نفسه، ومن تضاؤله أمام شعبيّة التسالي والألهيات المهرجانية؟ ألا يدعو وقوفُ أشهرِ شاعرٍ عربي، أمام حشد من آلاف المستمعين، إلى التأمل والتساؤل عن الدور الرسولي للشاعر تاريخيّاً؟ وهل يختلف، حقّاً، عن دور أيّ مطرب لا يقلّ شهرةً في هذه الأيّام، مثلاً؟ بعض المثقفين صاروا يتباهون باكتشافهم مثل هذه التوافقات. غير أنّ الأمر ليس بهذه السهولة، لا لأنّ دور الشاعر صار من المفترض أن يكون متقدّماً حتّى على دور الفيلسوف، وإنّما لأنّ التعامل مع الشعب ككتلة كميّة لا يخرج عن الوسائل الاستبدادية التي تطول المثقف قبل غيره، باعتباره أقليّةً لا أحد يهتمّ بشأنها.

وبالتأكيد لا أحد من المثقفين، ومهما كان حسّه الإنساني ضعيفاً، يرغب في التبرّؤ من شعبه، أو من مواطنيه. ولكن ماذا يفعل المبدع أو المفكّر الحرّ إذا كانت الغالبيةُ العظمى من الفئات القادرة على النهوض الحضاري خاضعةً لاعتبارات ايديولوجيّة، تتأرجح بين الإعلانات الدعائية للاستهلاك التفاخري، وبين الأفكار المتطرّفة في استبدادها لإبادة أيّة رغبة في العيش الحرّ؟ وهذا التأرجح، ألا يطاول الأغنياءَ قبل الفقراء، ما دام هؤلاء الأخيرون غير قادرين على التفكير إلاّ بما يكفل بقاءهم على قيد الحياة؟

ومع ذلك كلّه، لا أحد يستطيع أن ينكر حضور الايديولوجيا في أيّة منظومة فكرية، سواء أكانت هذه المنظومة تتعلّق بالعلوم الطبيعيّة أم الإنسانية. ولكن ما ينبغي الاختلافُ عليه هو مستوى هذا الحضور. فهل يَصْدُر المثقفُ فيما يقوله عن خطاب ايديولوجي محض؟ أم هل ينبغي أن يكون خطابه علميّاً يتوخّى الحقيقة في مجال العلوم، أم ينبغي أن يكون إبداعيّاً في مجال الآداب والفنون؟

ثمّ لماذا هذا الصراخ عن علاقة المفكرين بالايديولوجيا؟ وعن علاقة الأدباء بالسياسة؟ وعن علاقة المثقفين بالشعب؟ ألم يتمّ البحث في هذه العلاقات وكيفيّتها؟ ألم يستقرّ الرأي، بعد، على ألا ينقد السياسيُ إلاّ بمعيار السياسة؟ والأديبُ إلا بمعيار الأدب؟ والمثقفُ إلاّ بمعيار الثقافة، اقتصادية، عسكرية، اجتماعية، نفسيّة... الى آخره، ما دام الجميع يحقّ له التحدّث في ما يريد وفقاً لتلك المعايير، وما دام الجميع يدّعي أنّه يسعى إلى مستقبل أفضل للإنسانية؟

لكنْ، من قال: إنّ المستقبل فكرة، أو تصوّر ايديولوجيّ؟ أليس القول بنهاية التاريخ، وبنهاية المثقف، وبنهاية الإنسان، وبالنهايات جميعاً، هو إغلاق المجال لأيّة إمكانية للعمل الموضوعي ـ الذاتي من أجل حريّة الإنسان في الحاضر؟ أليست الدعوةُ الى استمرار مقهوري العالم ـ المنهوب خاصّة ـ ومضطهديه، في حالة التخبّط بين الأفكار والأوهام الايديولوجيّة، هو الوجه الآخر لهذه النهايات، والمسوّغ المطلوب لانتصارها؟

نديم دانيال الوز

دمشق